الفصل الثالث

البرّية

في صباح الثاني من أغسطس كنت مستيقظاً مع الفجر كالعادة وانشغلت بالترتيبات النهائية للرحلة ولم يكن هناك أي حركة أو نشاط مماثل لنشاطي بين رفاقي الذين كانوا إما يغطون في نوم عميق أو يحتسون القهوة حول نار المعسكر. وكانت الجمال لم تعد بعد من المرعى. وما زال ابن مدعار غائباً. ونظراً لأن عبود -الطباخ- كان يشم رائحة التأخير الذي يتعذر اجتنابه، فقد أشعل النيران تحت قدوره ليعد الغداء. وبخلاف ذلك كان كل شيء جاهزاً.

ولقد كانت الأيام القليلة الماضية فاسدة الهواء قابضة للصدر وثقيلة الوطأة إلى حد ما دون أن تكون حارة على وجه التحديد. وفي الشضيف كنا على ارتفاع حوالي ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، ولكن درجة الحرارة في السابعة صباحاً لم تكن تقل عن ثمانين إلا بقليل. وعند منتصف النهار كانت ترتفع إلى ثمانية وتسعين تحت ظل الخيام (وهذه ليست درجة حرارة مناسبة في الظل)، كما نزل المطر قليلاً. وكانت الظروف الجوية في الحقيقة مختلفة جداً عما كنت أتوقعه في هذه المناطق الجنوبية، وكان من المدهش تكرار تأخير أو تعطيل الغيوم لملاحظتي للنجوم. وكان من الواضح أننا على حافة منطقة الرياح الموسمية، على الرغم من أن الحاجز العالي لجبال اليمن قد استولى على جميع الأمطار الفعلية، ولم تكن الظروف غير مواتية للسفر بالصحراء.

وقد أنفقت وقت الانتظار في قراءة الأعداد القليلة الأخيرة من مجموعة ضخمة من جريدة التايمز التي تلقيتها قبل مغادرتي نجران. وكان العدد الأخير بتاريخ ٢٦ مايو، يحتوي على مراجعة لكتاب فريا ستارك المنشور حديثاً عن رحلتها بحضرموت. وكنت وجهتها أيضاً شبوة، وتساءلت ما إذا كنت سوف أنجح أكثر منها في كشف

السر الذي ظل حتى الآن يتحدى جميع المحاولات لسبر أغواره. وبينما كنت أمتث لقراءة الجرائد إذ جاءني رجل ودخل خيمتي وسلمني خطابا من ماكسويل دارلنج[1] الذي كان قد زار جدة وسهل الحجاز الساحلي في أوائل هذا العام بحثاً عن الجراد. وكان الآن لا يزال يبحث في هذا الموضوع في بيحان التي غادرها المبعوث منذ ثلاثة أيام فقط. إن الأخبار تسير بسرعة في الصحراء بكل تأكيد، وكان ماكسويل دارلنج قد سمع بوجودي في نجران من شخص يدعى (سعيد بن حسين) الذي قابلته في بئر الحصينية[2] في وادي حبونا واستفسرت منه عن إمكانية الوصول بالسيارة إلى شبوة وبيحان، ووعدني أن يعمل كدليل لي إذا انتظرته حتى يعود من خب، حيث إنه كان في ذلك الوقت ذاهباً إلى هناك في بعثة لتحصيل ديون. وكان مبعوث ماكسويل دارلنج قد جاء إلى الشضيف في مسار رحلته الطبيعي لنجران، ولم يظهر عليه أدنى دهشة من مقابلتي في منتصف الطريق.

وأخيراً وبعد وقت طويل وصل ابن مدعار قرب الظهر، أي في الميعاد المناسب لتناول الغداء. تمّ تقسيم القافلة إلى جماعتين، واحدة للسيارات وأخرى للإبل، وذلك بعد نقاش كثير. وكان ابن قنيبر قد ضغط على وجه الخصوص ليتم ضمه إلى الجماعة الأولى، وقد قبلت حجته على أساس أننا على الأرجح سوف نسير بين بدو الصيعر في الصحراء أكثر من أي شخص آخر. وعلى أي حال كان عليه أن يركب في الشاحنة، بينما كان ابن مدعار سوف يركب معي بناءً على ما يدعيه من معرفة المنطقة المحلية، والتي كان عمه يقلل منها إلى حد كبير. وكان جعمل، الخبير في صيد البقر الوحشي، سوف يظل في جماعة السيارات، ولكنه انتقل الى الشاحنة، التي تحمل

---

(١) من الإدارة الزراعية بالسودان. (المؤلف).

(٢) الحصينية: قرية مهمة من قرى حبونا، يمر بها الطريق الحضري، البلادي، بين مكة وحضرموت ص٢٠٦. (المراجعون).

أيضاً محمد السائق، وابن حضيل ليطبخ لنا، وسعد بن عثمان للمحافظة على لحوم الحيوانات. واكتملت الجماعة بابن شماخ، كما تمّ توزيع كل من تبقى على الإبل، وقد أعرب ابن هضبان عن تفضيله ركوب (ذلوله) الخاص.

وفي حوالي الساعة الثانية إلا ربعاً بعد الظهر بدأت الرحلة بانطلاق جماعة الإبل أولاً. وأعطيناهم ساعة بعد التحرك ثم بدأنا في اقتفاء أثرهم عبر الوادي بالطريق نفسه الذي كنا أتينا منه منذ أيام قليلة مضت. ولم نكن قد تجاوزنا الملتقى الثلاثي بكثير عندما طلب مني ابن مدعار -الذي لم يركب سيارة أبداً من قبل- أن أتوقف. وفتحت له الباب، وجلس على الأرض يتقيأ ما تناوله في الغداء. وعندما شعر بتحسن استعاد مكانه بجواري. وبعد مسافة قليلة اضطررنا إلى الاتجاه لليمين نحو قاع شعيب محيجر، ولكن ابن مدعار، في ثورة مرضه، نسي أنه كان من المفروض عليه أن يرشدني. وعلى أي حال كنا قد تجاوزنا الثنية تقريباً عندما أدرك وظيفته. وعند الالتفاف بصورة مفاجئة في الرمل أوقفت السيارة، وأضعنا بعض الوقت في إخراجها وبعد ذلك سرنا قدماً في رافد الوادي بالاتجاه الصحيح، ولكنا لم نكد نقطع مسافة كبيرة إلا وأعلن ابن مدعار عن قرب إصابته بالمرض مرة أخرى. وتوقفت إلى أن انتهى تماماً من التقيؤ وشعر بأنه مستعد وسليم جسمياً لمواصلة المغمرة. وفي هذا الوقت كنا قد وصلنا رأس شعيب محيجر قرب سلسلة تلال منخفضة، وبعدها عبرنا رافداً صغيراً آخر لوادي الأمواه يدعى شعيب ركيب. وبعد ذلك بفترة وجيزة وحيث إننا لم نكن قد سافرنا إلا حوالي ستة أميال من الشضيف فقد دخلنا وادي غمير (ملحة) الواسع وهناك كانت جماعة الإبل قد أقامت المخيّم بالقعل وكانت الإبل ترعى النباتات المتناثرة الخفيفة. وفي هذه النقطة وسط قدر ضئيل من شجيرات السنط والحرمل كان الوادي يلتف في ثنية حادة جداً حول كتف أحد سلاسل التلال المعترضة ليستمر في مجراه عبر التلال المنخفضة حتى يتصل بوادي

الأمواه. ويمكن رؤية مجراه عكس التيار إلى مسافة تمتد حوالي ثلاثة أميال في الاتجاه الجنوب الغربي.

ولكي نقطع الوقت قبل الغروب تسلقت أنا وابن هضبان وابن مدعار وابن قيير قمة تل منخفض فوق معسكرنا حتى نلقي نظرة على المنطقة المحيطة. وإلى الشمال الغربي كانت سلسلة المعو الطويلة تسد الأفق بتل جامع الذي يرتفع فوق مستوى منخفض في السلسلة ليكوّن علامة واضحة على موقع وادي خب. وإلى الجنوب والجنوب الغربي ظهرت أمامنا سلسلة كاملة من القمم الشاهقة الجديدة وسلاسل التلال، الهضبة العليا وتمتد لمسافة بعيدة نحو الصحراء جنوب موقعنا تقريباً، وتطل رابية (اللوذ) الجرانيتية العالية وقمتها (زويرة) الشاهقة المطلة على قرى الجوف تحتها وما وراءها، وهناك قمة (محر) خلف بئر بوع، مع سلسلة (صبرين) على جانبه القريب، وسلسلة صعيفان الطويلة، نصيف والخرشة.

وكانت الصحراء نفسها تختفي عن أنظارنا بسلاسل التلال المتداخلة المنخفضة. ووقع نقاش أخير بعد العشاء عما إذا كان يجب علينا أن نتجه إلى العَبْر أم شبوة. إن الطريق الذي سوف نسلكه في الغد يتحدد بناءً على قرارنا، وكان إجماع الرأي يميل بصورة عامة إلى الطريق الأول لأنه أسهل الاثنين. كما أن هذا المسار يناسبني لأنه يبدو عبوراً مباشراً للصحراء أكثر من غيره، وطبقاً لذلك تمّ وضع خططنا بحيث نصل تلال الريان عند الغروب في اليوم التالي. وكان على الإبل أن تبدأ المسير في الصباح الباكر قدر الإمكان، ونحن نتبعهم على مهل. وقيل لنا: إن أفضل فرصة لنا في العثور على البقر الوحشي ستكون خلال هذه المرحلة الأولى، لأن جفاف الصيف سيكون الآن قد طردها إلى التخوم الغربية للصحراء. وحسب اعتقادي كانت آبار العَبْر تقع على بعد حوالي مئة وخمسين ميلاً من موقعنا الحالي في خط مباشر لحد الجنوب - الشرقي. وكان قطيع من الأغنام - الذي عاد مؤخراً من الشرب في الشضيف، يرعى العشب في وادينا عندما انطلقنا في الساعة السابعة صباحاً على صول

أرض فضاء تمتد عبر السلاسل الأخيرة من المرتفعات. واختار ابن مدعار -دون أن يقول كلمة واحدة- أن يركب مع جماعة الإبل، وحسب أقصى حدود ما أذكره لم يتجرأ أبداً مرةً أخرى على الركوب في أي من السيارتين. إن الساعة الوحيدة من تجربته المثيرة تلك كانت كافية لتبقى معه طول حياته. وجاء مكانه ابن هضبان، وكان هذا التغيير مفيداً من وجهة نظري. فعلاوة على كونه شخصية بارزة من بين طاقمنا كله، فقد كان يعرف المنطقة تمام المعرفة مثل أصابع يده.

وفي هذا الشأن كان هو وجعمل صنفين فريدين لوحدهما، وقد انضم إليهما في هذه المنزلة فيما بعد شخصان آخران من الأشخاص الذين سوف نعترف بفضل خدماتهما عند ظهورهما على مسرح قصتي. ولهذا الرباعي أدين بدين لا يمكن حسبه لامتلاء خريطتي بهذه المنطقة بالكامل والتي لم يرسم لها خريطة حتى الآن. وكانت مكافأتهم على العمل، سخية بما فيه الكفاية حسب معاييرهم، من ميزان مواردي المالية الضئيلة. ومع ذلك فإنهم يستحقون أكثر من ذلك لمساهمتهم القيمة في مجموع المعارف البشرية، وأحياناً أثناء خلو ذهني لفترة طويلة من المشاغل والأفكار المألوفة التي تنتاب الإنسان كنت أستغرق في تأمل غرابة عادات الإنسان وتقاليده. إن مكتشف منجم الذهب ومخترع جهاز ميكانيكي أو دواء من الأدوية المسجلة ببراءة الاختراع أو مؤلف كتاب رائج أو قطعة موسيقية مشهورة، كلهم حقوقهم محفوظة بموجب حماية قانونية. أما مكتشف نجم جديد أو قارة جديدة قد يموت من الجوع، وقد مات بالفعل أحد أعظم المحسنين للعالم -وهو مكتشف بعوض الملاريا- فقيراً معدماً. إن علوم أمثال هؤلاء، التي اكتسبوها بعرق جبينهم، تعد ملكاً مشاعاً. إن انعالم لا يشعر بالشكر والفوائد والامتنان للفوائد التي قد يجنيها بدون الاعتراف بها. هكذا الأمر مع العمل الطبوغرافي. إنني أكد وأكدح مجاناً في خدمة العلوم البحتة، ولا أستطيع أن أكافئ بصورة كافية أولئك الذين ساعدوني في هذا الهدف النبيل.

وواصلنا السير حتى شفة الأرض الفضاء (أو الفرجة) التي تتجه للارتفاع تيئاً فشيئاً، وذابت المرتفعات أمامنا لتتكشف لنا الصحراء. وقد اقتبس ابن هضبان مثلاً من بعض أشعار البدو يقول «إن الذي يتجسس على قناو يرهب الطريق المخيف». وعلى بعد حوالي عشرة أميال للجنوب الشرقي ترتفع تلال "قناو" الثلاثة السوداء. وإلى مسافة بعيدة وواسعة امتد أمامنا سهل «جو المليس» الرملي الهائل، والذي تتناثر فيه تلال صغيرة معزولة، مثل تل الرجلاء والقليعة على خط سيرنا نفسه، وبني جعاس و«مطاو»[1] نحو الشرق، وحيض الذي يبرز من بين أمواجه الرملية للشمال - الشرقي، وبليق والشهلا عند مسافة بعيدة للجنوب - الشرقي. وقد سدت سلسلة الهضبتين مع اللوذ مدى النظر في اتجاه الجنوب.

وطار زوج من الدجاج البري من أمام السيارة ثم حطّ مرة أخرى على الرمل جانباً. وعبرنا خط «غار النويري» الضحل الذي يقوم بتصريف الأمطار والمحدد بشريط من أعشاب الحزم الذابل وقليل من الشجيرات الصغيرة الجافة. وتوقفنا لنفحص دروب قافلة تتجه نحو الشرق والشمال الشرقي نحو تلال الريان. وكانت بلا ريب قاصدة حضرموت، ولم تمر في هذا الطريق إلا الليلة الماضية فقط، ولكنّا لم نرها هي أو أثر سيرها مرة أخرى. ومما لا شك فيه أنها سارت على طريق مختلف إلى الجنوب من طريقنا. وقد رأينا هنا أيضًا أثر سير الثعالب، وكنا قد لاحظنا أول الغزلان على بعد حوالي خمسة أميال بعد ذلك عندما عبرنا مسطحات التصويف الضحلة لكل من حزم وقيسين. وكان سطح الصحراء طيباً بصورة عامة وذا رمال ثابتة ومتموجة قليلاً وبه بقاع متباعدة من الحصباء الخفيفة. وكان طائر وحيد من طيور القنبر الصحراوي يستظل من الشمس تحت شجيرة هزيلة هي الوحيدة الموجودة بالمنطقة لمسافة أميال حولها.

(١) في خريطة نجران مقياس (١: ١٠٠٠٠٠٠)، موضع في خط سير هذه الرحلة باسم «مطان» لعله يكون هو الموضع الذي سماه فيلبي مطاو "Matau". (المراجعون).

واتجهنا الآن لخط بعيد من الشجيرات التي تقف علامة على قناة التصريف «شبة الخيل» ولزمناها نحو الجنوب الشرقي. وهنا رأينا أول أثر لسير البقر الوحشي، جديد تماماً، بين الكلأ الضئيل. وواصلنا التزام هذا المنخفض أملاً في رؤية الحيوانات، ولكن بعد فترة من الوقت تحولنا نحو الشمال تجاه مطاو.

وانطلقنا بالسيارة في سرعة جيدة فوق سهل من الرمل الجرانيتي ذي الحبيبات الخشنة، وكنا نقترب من تل مطاو عندما افتقدنا الشاحنة. وقد مسحنا الصحراء في جميع الاتجاهات، وبعد مدة طويلة رأيناها تطير بسرعة كما لو كانت "مجنونة". وكان مما لا شك فيه أنها تطارد غزالاً على الرغم من تعليماتي المحددة بأن تترك جميع أعمال الصيد لسيارتي. إن تموين الوقود معنا لم يكن زائداً بدرجة تكفي أي ترتيبات أخرى. ومن الغريب -على أي حال- أننا لم نشاهد الغزلان على الرغم من أننا عبرنا بعض آثار سيرها. ومهما يكن من أمر فقد قررنا أن نواصل السير حتى مطاو لنتوقف هناك عند منتصف النهار، والآن لاحظنا أنه مأهول بالفعل. فحوله كانت الإبل ترعى ومعها بعض الرعاة. واعتقدنا أنهم ربما يكونون من القافلة التي رأينا أثر سيرها، وتقدمنا بحذر قبل أن نورط أنفسنا. واكتشفنا، على أية حال، أنهم من جماعة الإبل التابعين لنا وقد توقفوا للراحة والطعام على الرغم من أن الوقت كان لا يزال في العاشرة والنصف صباحاً. وكان هذا تقريبًا سيراً طيباً بدرجة كافية لرحلة بلا ماء تمتد لقرابة مئتي ميل، ولكن الإبل كانت هي قدرنا التعيس، فالسيارات تستطيع، على كل حال، أن تصل الريان بسهولة قبل الغروب، أما الإبل فسوف تضطر أن تسير خلال جزء من الليل حتى تخيّم معنا.

ولقد ثبت أن مطاو بقعة ملائمة لنوم القيلولة. فصخوره الجرانيتية المتراكمة بلا نظام وفرت كهوفاً وملاجئ كافية لنا جميعاً، وقمته - التي يمكن الوصول إليها ببعض الصعوبة - أعطتني نظرة طيبة على جميع ما حولها. وقمة جبل زنقر التي تطل على بئر مشيتيقة تقع تقريباً إلى الشرق تماماً من موقعنا، بينما باقي تلال الريان، وهي مساحة واسعة من الروابي والسلاسل الجبلية، تمتد من الشمال الشرقي حتى الجنوب الشرقي،

وتسد النظر لما وراءها. ومن أقصى طرفـها للشمال الغربي من مـوقعنا هنا كان هناك منظر رائع للرمـال العالية والتي كـانت أقرب نقطة منها لـنا تبعد حـوالي ميل. هذه الرمال، طبقاً لما قاله ابن هضبان وجعمل، تمتد من حدودها الجنوبية ، على طول خط العرض السابع عشـر تقريباً، في مجموعات صلبـة لا يمكن اجتيازها من سلسلة تلال إلى سلسلة تلال حتى أقصى حدود وادي الدواسر في الشمال. وتتلاشى نحو الغرب تجاهنا نحن والتلال السـفحية اليمنيـة في سلسلة من المنحنيات الخفيـفة مثل الأطراف الناعمة لمروحـة مفتوحة من ريش النعام. ويبـدو أن أطرافها تتموج تقـريباً مع النسيم الذي يهب عليـها. وتختلف مـحاور الأقواس الرمليـة التي يمكن رؤيتهـا من الغرب للشرق عن يسـارنا حيث يتصل اثـنان منها اتصالاً وثيـقاً بتل بني جعـاس، (غرب. جنوب، غـرب) - (شرق، شـمـال،شرق) في المركـز المقـابل مطاو، وإلى (جنوب غرب، شمال شرق) عن جهة اليـمين حيث تصل الحدود الخارجية للريان. وعلى أي حال يبـدو أنها تتهـيأ في تشكيلات أكـثر تكتلاً عند القـاعدة، التي تمتد منهـا التلال الرملية الضخمـة نحو الشرق إلى حدود البصر. أصابع الرمل المنحنيـة الخارجية فقط تمتد تجـاه الجنوب من دربنا الذي ننوي أن نسلكه، وتستمـر من سلسلة قوع في الريان عبر واجهة هذه التلال حتى تل الخليلة الصـغير والمنعزل في الصحراء. هذا الامتداد، كما نكتشف في الوقت المناسب، كان ذا موجات منخفضة وثابتة نسبياً ولم تمثل عقبة خطيرة لمرور السيارات عليها.

وقد أضافت صـخور مطاو إضافة ضئـيلة إلى مجموعة «التـاريخ الطبيعي» التي أمتـلكها حـيث أهدتني زوجاً من الجـرابيع التي يبـدو أنها وفـيرة هنا، والطائر المغـرد الرمادي الذي لاحظت علاوة عليـه «هدهداً» وحيداً عند وصولنا. وعلى أي حـال فقد جاءنا بند أكثر أهمية مع جماعة الشاحنة الذين كانو يقودونها وهم يغنون بصورة مفعمة بالقوة والحيوية احتفالاً بشجاعتهم وبراعتهم. وقاموا بسحب ثور رائع من البقر الوحشي

من السيارة وأحضروه إلى كهفي. وسواء كنت عاقلاً أو لا فقد انتابني الغضب أكثر من السرور، وصببت جام غضبي على هؤلاء الصيادين الذين أصابهم الذهول والاستغراب، فلقد تحدثنا كثيراً لأيام طوال عن احتمال رؤية البقر الوحشي في بيئته الطبيعية بالصحارى. وفي نجران كنت أستطيع أن أضمن عينات كثيرة قدر ما أرغب من خلال تكليف صيادي البدو باصطيادها لي. وقد أهداني الأمير عجلاً صغيراً منها، ولكنه لسوء الحظ مات بعد شهور قليلة وهو في طريقه إلى جدة. إن رغبتي الوحيدة كانت رؤية الحيوان حيًا في وضعه الصحيح والاحتفاظ -إن أمكن- برأس واحدة منها لنفسي. وقد وعدني جعمل بكل ثقة أن يحقق أمنيتي. وهو -من بين كل الناس- قد وفر عليّ المشاق عندما رمى الغنيمة عند قدماي. وبكل بساطة لم يستطع فهم استيائي. وكان من المستحيل أن أحاول تفسيره له. وهكذا تناولنا الغداء من العصيدة في صمت كئيب، ولم يجرؤ رجل واحد على السؤال عن اللحم. وبعد ذلك قمت بقياس هذا الحيوان الرائع وطلبت من سعد أن يسلخه. لقد كان الوحيد الذي استطعنا رؤيته أو الحصول عليه مطلقاً. إن انتهاك جعمل للمحرمات كان أكبر من أن تغفره الصحراء.

وكانت الساعة الثالثة عصراً قبل أن تنطلق الإبل، ولم تصل المعسكر إلا عند الساعة التاسعة. وكان الحاجز الرملي المنخفض، الذي وصلناه بعد أن مشينا خمسة أميال، يمتد في ثلاثة أشرطة منفصلة عبر مسارنا بعمق إجمالي يزيد قليلاً عن ميل واحد. وبعد ذلك بستة أميال دخلنا سلاسل التلال المنخفضة التي ينتشر الرمل عليها والتي تشكل الدائرة الخارجية لأرض الريان. وعصفت ريح شرقية مروّعة بالرمل من تلك المنحدرات في وجوهنا. وعلى أي حال لم يمض وقت طويل حتى وصلنا إلى منخفضات الوادي الوسطى التي تتدفق من منحدرات التلال الشاهقة. وكان أكبرها «شعيب مشينيقة» الذي قاسينا قدراً عظيماً من الصعوبة في عبوره نتيجة وجود كتل ضخمة من الحشائش على كلا جانبي القناة الحقيقية. وإلى مسافة قريبة على ضفة

الشعيب اليمنى اخترنا موقعاً لمعسكرنا في بقعة ذات أشجار قصيرة وشجيرات متفرقة.

ومشيت أنا وابن هضبان في الوادي نرتاده، وبعد نصف ميل تقريباً فوق معسكرنا، حول ثنية من القناة صادفنا موقع بئر قديم محاط بأثر محاولات حديثة لحفره والتي فشلت -على كل حال- في العثور على الماء. وبالقرب منه توجد مقبرة ضخمة نسبياً تحتوي على قبور جماعات من البدو أو ضحايا معارك قبلية. ومن بينها كانت هناك رقعة دائرية محاطة بطبقة واحدة من الحجارة غير المستوية ومزينة على جانبها الجنوبي بقطع أكبر من الصخور بارتفاع يبلغ حوالي قدمين، ومنصوبة إلى أعلى. وكان قطر الدائرة سبع خطوات، والسطح الداخلي بها لا يبدو أن أحداً قد وطأه من قبل. ولم تكن قبراً بالتأكيد، ولكن ماذا تكون إذن؟ هذا ما لم يستطع ابن هضبان قوله ولم أستطع أنا أن أخمنه.

وهناك موقع بئر آخر إلى البعيد قليلاً في القناة مقابل صخرة في الضفة اليسرى مزينة بقليل من النقوش. وهنا أيضاً حاول البدو مؤخراً -ولكن بلا جدوى- الحفر في الرمل طلباً للماء، في حين قد كوفئ بحثهم في بقعة ثالثة قريبة باكتشاف فوهة بئر تم حفرها في الصخور الجرانيتية الحمراء، بقطر ثلاثة أقدام وعمق حوالي عشرة أقدام في الرمل الذي انهال إلى الداخل وسد باقي البئر. ومن الواضح أنهم فشلوا مرة أخرى في العثور على الماء. ويوجد اعتقاد محلي يقول: إن الموارد التي كانت ذات يوم تمد هذه المجموعة من الآبار بالمياه قد جفت لسبب من الأسباب لم يقدم له أحد تفسيراً. إن مشينيقة موقع رئيس بكل حق، ليس فقط للبدو الذين يرتادون مراراً المراعي الوفيرة عادة في أراضي الريان، ولكن أيضاً للقوافل المتجهة لحضرموت. وفي تريم بعد ذلك بعدة أسابيع، عرض عليّ مقال يصف طريق قافلة الحج التي أكملت الرحة في عام ١٨٦٤م من حضرموت إلى مكة والعودة ثانية بدون حادث مشؤوم. وربما كانت هذه آخر قافلة حج على هذا الطريق يوجد لدينا سجل وثائقي عنها. لقد وجدت بالتأكيد ماءً في مشينيقة في ذلك الوقت، ولكن هذا كان في أيام بحبوحة

العيش والغِنى في عـهد فيصل بن سـعود[1] الذي شمل حكمـه منطقة حضـرموت والذي -كما سنرى فيـما بعد- يبدو أنه قد وجه اهتمامـاً خاصاً لإنشاء هذا الطريق. ولم أستطع أن أكتشف متى بدأت الآبار تجف، ولكنها كانت كذلك لأطول فترة يمكن أن يـكرها ابن هضبان.

وتوجد عـلامة ماء كـبرى وبها ثمـانية وعشـرون نقطة على الصخـور بجانب الوادي، مع تصوير جميل على غير العادة لرجل مسلح يشـير بإصبعه في اتجاه البئر. وعلاوة على ذلك كان هناك رسم واضح بصورة قوية - على الرغم من تشويه الوجه جزئياً - لرجل على حصان جامح وهو يلوح بسيفه الأحدب -على ما يبدو لي- فوق رأسه. وكان هذا واحد من أفضل الرسوم على الصخر التي رأيتها خلال بعثتي كلها، وله أهمية خاصـة على ضوء ما قاله بليني من أنه لم تكن توجد أي خـيول في سبأ. ولسوء الحظ لم يكن عليه تاريخ، على الرغم من أنه يفترض أن يكون من عصر عتيق بدرجة كبيـرة ، ويقدم دعماً تصويرياً لنقش من القرن الثاني قـبل الميلاد يحتوي على أقدم صورة معروفة للخيل (أو بالأحرى أنثى الخيل أو الفرس) في الجزيرة العربية.

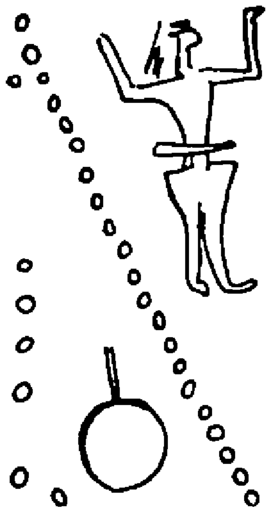

(١) هـ الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله، حكم لفـترتين تبدأ الأولى عام ١٢٥٠هـ وامتدت إلى عام ١٢٥٤هـ، والثانية عام ١٢٥٩هـ إلى وفاته -رحمه الله- عام ١٢٨٢هـ. (المراجعون).

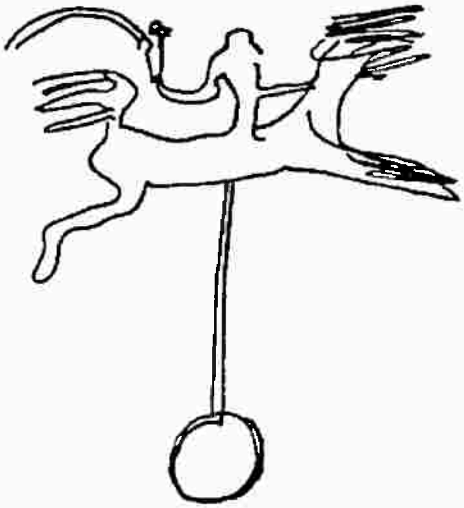

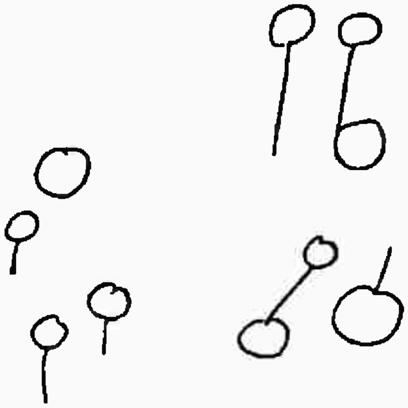

ولسوء حظي في مراقبة النجوم، كعادتي، أظلمت السـماء بالغيوم الكثيفة قبل غـروب الشمس وظلّت كـذلك طول الليل كلـه. وكان عليّ أن أكـتـفي تبعـاً لذلك بالارتفاعـات الضوئية للشـمس في الصباح التـالي لمعرفة خط الطول فـقط. وكانت الغيوم مصحـوبة بريح شمالية عاصفة وقليل من قطرات المطر. ونتيـجة لتأخر وصول الإبل لم نتناول العشـاء إلا عند منتصف الليل، وكان مكوناً من العصـيدة ولحم الثور الوحشي، ولقد كان أكلاً ممتازاً بالفعل.

وقد حدث حـادث عرضاً، إذ بينما كنت أنا وابن هضبـان نتجول في الوادي، انطلق جعمل في الاتجـاه المعاكس ووجد راعياً من الصيـعر، والذي زارنا في المعسكر وشاركنا العـشاء. وكان من الواضح أنه هو وعائلتـه، بما فيها فـتي صغير جـاء معه عندئ، قد مكثوا في هذه المنطقة القاحلة لأسابيع كـثيرة. وكان قطيعه من الأغنام من نوع «مجزي» كـما يقولون - أي ترعى بدون ماء. ما دامت الأغـنام يتم حجزها عن الماء، حسب مـا شرح لنا، فإنها تسـتطيع أن تصبر على العطش لفـترات طويلة، أي لشهور من غـير انقطاع، أو حتى لعام كـامل. ولكن بمجرد أن تأخذها للمـاء فيجب عليك بعد ذلك أن تسقيهـا بانتظام - على الأقل مرة كل يومين. إضافة إلى ذلك فإن الأغنام البيضاء فقط هي التي تتمـتع بطاقة التحمل هذه، أي أنك لا تستطيع أن تأخذ الغنم السوداء للمـراعي التي ليس بها مـاء. وبالنسبة للكائنات البـشرية فإن طعـامهم وشربهم في آن واحـد هو لبن أغنامهم، ويعرفون بعض المواضع التي يوجـد بها طين مبلل إلى حد ما في الوهاد، ومنه قد يعصرون قطرات قليلة من الماء. وزيارتنا مكنتهم من ملء بطونهم، وقد أخذوا معهم أيضاً بعضاً من لحم الثور الوحشي لنسائهم.

ويبدو أن الوادي كان مليئًا بالثعابين بصورة مزعجة، وقد قمت فعلاً بوضع زوج منها في زجـاجة. وكان أحدهمـا ينزلق خلسة فوق البطانيـة التي تغطي أرجلي عندما كنت أجلس في فراشي للعـمل. وفي الصباح اصطدت أرنباً برياً في مـنحدرات زنقر وكان يوجـد هناك أيضا عـدة طيور من القنـبر الصحـراوي. وفي المساء السـابق عند

الشفق رأيت عليه طائر السُّبد (Nightjar) الذي يطير على ارتفاع منخفض قرب المقابر.

كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة خلال الليل سبعة وسبعين درجة، يبزغ الفجر متجهم الوجه، فاسد الهواء، ملبّداً بالغيوم. وكنا هنا على ارتفاع حوالي أربعة آلاف قدم فوق البحر، بالإضافة إلى قمة زنقر التي ترتفع ٥٠٠ قدم أخرى فوقنا. عند سفح التل عثرت على قبر وحيد، يبدو من الواضح أنه لشخص هام. وكان على شكل مستطيل، طوله ست خطوات وعرضه أربعة، وشاهد القبر يرتفع ثلاثة قدام ويقف منتصباً وسط الناحية الشمالية، بينما العمود الجرانيتي، الذي تم تزيينه بعناية ولكن بصورة غير مستوية، والذي يبلغ طوله خمسة أقدام ونصف، كان يمتد بصورة مائلة عبر القبر. وربما كان ذلك لتزيين الناحية الجنوبية من المستطيل.

ومن قمة زنقر كنت قد استطعت أن أجمع فكرة ضخمة عن منطقة الريان وما جاورها. إن وادي مشينيقة الذي يبدأ في منحدرات التلال على بعد نصف ميل جنوب هذه النقطة يلتف حول قاعدة زنقر، وكذا يتجاوز معسكرنا ليفرغ نفسه في سهل طيني واسع والذي يبدو أنه يشطر تلال الريان من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. والتلال بصورة عامة ليست ذات ارتفاع كبير، ولكن يبدو أن بعض النقاط القليلة منها مثل أكباد وبويقي والقراين وغيرها كانت على ارتفاع "زنقر" نفسه. ومن الرمال الهائلة لم نستطع رؤية أي شيء أكثر مما رأيناه بالفعل من "مطاو" إلا قليلاً نظراً لأن القسم الشرقي من الريان وراء السهل الطيني كان يحد من رؤيتنا. وعلى كل حال يبدو أن شريطاً يبلغ عرضه ميلاً من السهل المنبسط الحبيبي يفصل الريان عن الحافة الجنوبية للرمال.

وكانت الساعة التاسعة والنصف قبل أن نستأنف سيرنا، تابعنا محيط منحدرات زنقر وبعد ذلك انحرفنا عبر السهل الطيني. وقد قاسينا من مشاكل قليلة من شعيب رملي غير مستو يجري على طول جانبها البعيد، ولكن بعده كان السير يسيراً بدرجة

كافية فوق ممر صخري يلتوي خلال بقعة غير منتظمة من التلال المنخفضة والمرتفعات الصغيرة من ركام الحجارة. وفي ذلك الوقت فقدنا أثر سير جماعة الإبل التي انطلقت من المعسكر عند الساعة الخامسة صباحاً. وقد تمّ بصورة غامضة تسمية تل صغير رائع. يدعى «أبو كعب» كمكان الالتقاء للراحة في منتصف النهار. ولكن الأودية الضيقة في المنطقة المجاورة له كانت تشبه بعضها إلى حدّ كبير، وبدا لبعض الوقت أننا نسير على غير هدى. وعلى كل حال فقد حالفنا الحظ حيث إننا عثرنا مصادفة على الوادي الذي كانت الجماعة تخيم فيه وهبطناه. وأوقفت سيارتي قريباً تحت أغصن شجرة كي أجني فائدة الظل المزدوج، على الرغم من أنه لم يكن هناك حاجة ملحّة على وجه الخصوص لعمل ذلك. وبقيت السماء ملبّدة بالغيوم طوال فترة بعد الظهر، وهبت علينا ريح الشمال بعواصف متقطعة، والتي ساهمت في خلق ظروف ملائمة جداً. وكنا هنا قريباً من حافة «الريان» الجنوبية، ولم يستغرق الأمر منا وقتاً طويلاً -فيما بعد الظهر- لمسح منطقة التلال.

وعندما تجاوزناها وجدنا أنفسنا في منطقة مفتوحة وعرة قليلاً، وبها سلاسل تلال «برقاء الأشقر» المنخفضة والمغطاة بالرمل أمامنا، ولكن إلى اليمين قليلاً عن مساونا. وسلاسل تلال برقاء الأشقر هي الحدود المعترف بها بين إقليم قبيلة دهم وقبيلة الصيعر، والأخيرة تمتد الآن بلا انقطاع إلى التلال شرق وغرب العبر. وبعد عبور منخفض زنيفر الواسع الذي تمتاز صخور القاع فيه بتكوينات زرقاء ورمادية وبها كثير من عروق الكوارتز وحجارة مفككة متناثرة، مررنا فوق شريط طويل ضيق وغريب جداً من الصخور الحمراء إلى حدٍّ ما والذي يمتد من الجنوب الشرقي، إلى الشمال الغربي. وهنا التقطنا رأس ثور ميت. ووراء ذلك دخلنا بقعة صخرية نسبياً التي حددناها لنوقف في وسطها سيارتنا لإقامة المخيّم لنقضي هذه الليلة بجوار نصب تذكاري بارز من ركام الحجارة يعرف باسم رضم الأمير. وقد سارت جماعة الجمالة

-سواء كـان ذلك مصادفة أو عن عـمد- بعيـداً عن طريقنا، ولم نر أي أثر لهم على الطريق كما أنهم لا يمكن أن يكونوا قد تجـاوزوا هذه النقطة بكل تأكيد. والحق أنا لم نرهم مرة أخرى إلا قـرب الصبح، حيث إنهم قد فـضلوا السير بصورة مسـتمرة من ناحية عـملية طول الليل كله لكي يقللوا المسافة بينـهم وبين آبار «العبر». ومما لا شك فيه أن إمدادهم من الماء قد بدا عليه علامات النضوب.

إن اكتشاف نصب «رضم الامير» كان ذا أهمـية كبرى. ووراءه في خط مستقيم باتجاه «العبـر»، تقريباً نحو الجنوب الشـرقي تماماً، توجد نصب مشـابهة أخرى على مسافات غير منتظمة تبلغ مئـات قليلة من الياردات. ولقد تمكنّا من رؤية ستة أو سبعة منها، يقال إنها تمتد على طول الطريق حتى «العبر». والطريق هذا، الذي توجد عليه تلك العلامات لإرشاد الرحالة أو القوافل، لا يزال يعرف حتى هذا اليوم باسم «درب الأمير». وطبقـاً لما قاله ابن هضبان فإن مبـدع هذا الطريق، الذي لا يزال يذكره تماماً عندما كان شيخا عجوزاً، هو «عبدالله بن مشاري بن قملة»[1]، وكان من شيوخ قبيلة «دهم» واكتـشف هذا الطريق ووضع عـلامات على طوله حـتى العبر بمـوجب أوامر فيصل بن سعود. كما كان يقوم نـيابة عن السلطان السعودي بجباية الزكاة عن قطعان أفراد «الصـيعر» فـي آبار العبر حـيث أقام الحصن الذي أصـبح الآن مجـرد انقـض. ويجب أن يكون قد انقضى مـا لا يقل عن سبعين عاماً منذ أن عُهد إلـيه بتلك المهمة لأن فيـصل قد توفي عام ١٨٦٧م، ولكن يـحتمل أن يكون ذلك قـد استمـر لأعوام قليلة بعد ذلك، ولا ريب في أنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتنظيم طريق الحج المذكور آنفاً.

---

(١) تعرف أسرة هذا الشخص بـ «آل بن قملا» من أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية التي أوصلتها هذه الأسرة إلى حضرموت. وأبرز ظهورهم هناك في عهد الإمام سعود بن عبدالعزيز سنة ١٢٢٤هـ، وتعريفاً بهذه الأسرة قلبت الألف إلى تاء مربوطة فاسموهم آل ابن قملة، انظـر: الكاف: حضرموت عبر أربعة عشر قرناً، ص٥٧، هامش (٣).

ويعد هذا النصب الركام ضمن منطقة بُرقة (برقاء الأشقر) والتي تقع أقرب تلالـا على بعد ميلين تقريباً، وفي شكل قوس منخفض في مواجهة النُصُب. ولذلك يمكن اعتبار النصب نقطة بارزة على حدود دهم – الصيعر. والسهل من ورائه امتداد «لجو المليس» الذي يعد بصورة غامضة بأنه يمتد عبر الصحراء تماماً من تلال اليمن السفحية حتى حافة تلال العبر. ولم تعد صخور سطح الأرض الآن من الجرانيت والبترلت، مثلما هو الحال في منطقة الريان، ولكنها من الحجر الجيري البلوري الصب ذي لون غريب يميل للزرقة.

قد جمعنا الغداء والعشاء معاً بعد الظهر في «أبو كعب» حتى يمكن أن تسير الإبل طول الليل، وتأوي جماعتنا الصغيرة إلى الفراش بلا عشاء. وعلى أي حال فقد أَعدّ ابن حضيل لنا خبزاً في الصباح، على الرغم من أن الساعة لم تكن قد جاوزت السادسة والنصف صباحاً عندما انطلقنا في المسير. وكم كنت أود لو سلكت طريق النصب حتى نهايته، ولكن كان من المطلوب أن نتأكد من اللحاق بجماعة الإبل، التي كانت بالتأكيد تسير في مسافة بعيدة عن يسارنا. وهكذا اتجهنا قليلاً للشمال من الشرق بحثاً عن أثر لسيرها. وفي ذلك السهل الفسيح المتموّج بصورة رقيقة جداً والذي تكسوه حصيرة من حصى الكوارتز المنتشر استطعنا أن نذهب حيثما أردنا. وبعد حوالي عشرة أميال من "رضم الأمير" تغير سطح الأرض إلى طبقة من الحجر الرملي الصلب الذي أكسبته عوامل التعرية الطبيعية قوة وتكوينات النتوءات المنخفضة مليئة بتشكيلات الأنابيب والأسطوانات جميلة الشكل. وبالقرب من حافته أتينا على شجرة سرح وحيدة، والتي قام ابن هضبان كإجراء احتياطي بنقش علامة قبيلته عليها (وسم) وكان عبارة عن نقطتين أفقيتين فوق دائرة. وحتى الآن لم نر أي أثر لجماعة الإبل، التي إن لم تصل إلى هذه النقطة تحت أي ظرف فسوف ندرك أننا قد تجاوزناها. وسوف يدلهم أثر سير السيارات على الأرجح قبل أن يروا العلامة. وفي هذه المنطقة رأينا أثر سير ثلاثة إبل كانت متجهة للغرب قبل أربعة أيام، وبعد ذلك بمسافة قليلة رأينا آثار سير قديمة لسبعة ظباء ذاهبة للشرق.

وقد قطعنا حوالي ثمانية أميال بعد شجرة السرح عندما رأينا -أخيراً ومما جعلنا نشعر بارتيـاح عظيم- آثار سير جماعـة الإبل التابعة لنا وانحرفنا معـها نحو الجنـوب الشرقي. وإلى الآن لم نقابل شيئاً حياً، ولا حتى طائرٌ من الطيور، ولكن أول غزال ظهر في الساعة الثـامنة والنصف صباحاً، وفي ذلك الوقت كنا قد انتهـينا من خمسة وعشرين ميلاً من نقطة البداية. وكـان سطح الأرض يتنوع من حين لآخر من حصباء الكوارتز هنا إلى حـجر رملي هناك. وكل هذه البـقعـة من حصى الكوارتز والحـجر الرملي تعرف باسم «رملة العَرَمْرَم». وبعد مـيل أو ميلين كان هناك ارتفاع طفيف في سطح الأرض، وبصورة واضـحة، على مسافة بعـيدة: استطعنا فقط أن نتـبين نـاطاً مرتفـعة قليلة من الهـضبة تحـد الأطراف الشماليـة لمنطقة حـضرموت مـثل مرصص و«دواثر» على اليـمين. وسرعان مـا رأينا بعد ذلك إبلنا قـادمةً من بعـيد، ولم تمض دقائق قليلة إلا وكـانت السيارة تنطلق بسـرعة قبلهم نحو منخـفضات «سر اليـمني» كثيرة الأشجار حيث اقترحنا إقـامة المعسكر هناك. وانطلقت غزالة أنثى «عفري» تعدو من مخبأها تحت شـجيرة، وانطلقنا وراءها نطاردها، حيث صرعهـا ابن هضبان أيضاً من أول طلقة من بندقيته. ورأينا الآن الكثـير من الغزلان، ولكن كان معنا من اللحم ما يكفي لوجبة منتصف النهار. ولم تكن الساعـة قد تجاوزت التاسعة إلا بقليل عندما وجدنا بقعة جميلة من شجيـرات السرح الظليلة المتناثرة لإقامة معسكرنا بها. وسوف تصل الإبل تقريبًا بعـد ساعة أخرى، وكنا جميـعاً نشعر بالجوع بدرجة كـافية لتناول الوجبة مبكراً.

وعلى الرغم من الريح الحارة الجـافة، إلا أن الجو كان بارداً بصورة مـناسبة في الظل الكثيف لشـجرة سرح كبـرى اخترتها لإقامـتي الشخصيـة. ولم يبدُ على طائر الصُّرد الرمادي (Grey Shrike)، الذي كان مستقراً بالفعل فوق الشجرة، أي علامة انزعاج عنـد دخولي تحت الظل وتطفلي عليـه، ودفع ثمن طيشه حـياته. وباستثناء طائر واحد من طيور الـقنبر والغزلان لم يظهر هناك أي أثر للحـياة في الوادي. يعد

جوبة قصيرة على الأقدام حول المكان فقد رجعت إلى مخبئي حيث كان ابن حضيل قد حضر لي بعضاً من لحم الطريدة المشوي في السمن، مع الخبز وكأس الشاي المعتاد. وعندما وصلت الإبل تناولت سلطانية من اللبن، على الرغم من أن تموين الماء كان يبدو لا يشكل أي مشكلة مزعجة الآن لأن مقصدنا كان تقريباً في مرمى البصر. وكانت الإبل قد نال منها التعب مبلغاً، وليس هناك سبب يدعو للعجلة.

إن موقع آبار العبر العالية، كان مبيناً لنا بقمة بامخاري العالية. وعن يمينها يبدو أن جُرُف وقمم مصاير هي كل ما تبقى من هضبة الحجر الرملي ذات الغطاء من الحجر الجيري التي نحتتها عوامل التعرية، بينما سلاسل تلال مرصص ودوائر ومشطة التي تقع خلف الأولى يفترض أن تكون من الحجر الجيري وفيها عروق من حجر الصوان الذي يأخذه البدو -طبقاً لما ذكره ابن هضبان- من هنا ويستخدمونه في إشعال النار ويبيعونه كل ستة حجارة بقرش واحد. ويقوم وادي سر اليماني بتصريف المياه من المناطق الغربية لسهل رمارم جنوباً بعد الطرف الغربي حتى مصاير في منطقة رملة السبعتين الصحراوية.

ولم تستأنف الإبل سيرها إلا الساعة الثالثة والنصف عصراً، وبدأنا بعدهم بحولي نصف ساعة . ولم يكن لدينا نية بالطبع في محاولة الوصول إلى العبر نظراً لأن الساعة كانت تقترب من الحادية عشر ليلاً عندما وصلت الإبل المعسكر «شعيب ملزق»، أي إنها أخذت تقريبا سبع ساعات ونصف لقطع مسافة ستة عشر ميلاً. وفي البداية سرنا بدرجة كافية من السهولة فوق الحصباء الخفيفة بسهل «أم السمر». وعلى أي حال، وبعد أميال قليلة يتحول السهل إلى سلسلة من الطيات الضحلة كلما اقتربنا من لتلال. وفي المنخفضات كان سطح الأرض متقطعًا إلى حد ما بخطوط تصريف المياه وأشرطة الرمل، وقدر متزايد من النباتات. وفي أحد تلك المنخفضات -قريباً عن يسارنا- رأينا مخيماً صغيراً للعرب في رقعة طيبة من الشجيرات والحشائش والأعشاب الخضراء الجديدة. وبعد مسافة من ذلك أصبحت تموجات هذه المنطقة أكثر

وضوحاً، حيث تتباعد أشرطة من الحصباء الجيرية عن بعضها بأودية واضحة وضيقة، مثل «أبا السرح والبريمية والسقيلية» وكلها تنحدر من المرتفعات حول سلسلة تلال دوائر لتتدفق في اتجاه جنوب غرب على طول واجهة مصاير. وتتحد كلها بصورة تامة مع شعيب ملزق -وهو أكبر قنوات التصريف العرضية هذه جميعاً- لتشكّل وادي حوا الذي يصرّف نفسه بعد قليل في رمال السبعتين.

وقد وصلنا شعيب ملزق عند الغروب، وسرعان ما استرحنا في مخيمنا بالوادي الرملي الواسع والمغطى بكثافة بالشجيرات والأعشاب. وكانت ضفته اليسرى قرب مخيمنا هي أول سلسلة من سلاسل تلال منخفضة مكسوة بقطع صغيرة من الحجر الرملي، والتي تملأ الفجوة بين هذا المكان والسلاسل المسطحة الأعلى قليلاً والتي تلتف حول آبار العبْر في نصف دائرة لمسافة ستة أميال فقط. وقد أدى إطالة توقفنا وسط النهار إلى العبث بما لدينا من تموين الماء وكنا في هذه المساء، وبدون حساب الماء المخصص لسيارتنا فلم يبق لنا إلا برميل واحد، كان مليئاً بماء مشوبٍ بالزيت، وتم فتحه للبدو. وفي الخامسة صباحاً كان كل فرد منا قد استيقظ وتمّ وضع السروج على الإبل وتجهيز كل شيء، وهكذا تركتهم جميعاً يسبقونا ثم نلحقهم على مهل بعد ساعتين أو أكثر.

وعلى بُعد حوالي نصف ميل وراء معسكرنا وقعنا على طريق درب الأمير الذي توجد عليه علامات، ويمتد لمسافة ما على تموجات صخرية وعرة بها الكثير من قنوات التصريف الرملية المعترضة. وبعد ذلك يسقط في ممر بين جدران طينية بارتفاع عشرين قدماً وهي ربما تكون لواد طيني مسدود منذ زمن قديم كما يبدو بوضوح يجري بين سلاسل التلال الوعرة. وبعد ذلك قدنا سيارتنا جزئياً على طول قاع شعيب المدرى وجزئياً على أرض صخرية على كلا جانبيه إلى أن دخلنا مرة أخرى في النهاية إلى واديه الواسع لنمضي بسهولة ويسر حتى العبر. وفي الطريق تجاوزنا مجموعات كثيرة

من الإبل المجتمعة من كل حدب وصوب على عين الماء للسقيا، في حين قابلنا ابن قنيبر وبعض من أصدقائه من الصيعر على بعد حوالي نصف ميل قبل الآبار للترحيب بنا في منطقتهم.

لقد كان كل شيء ساراً وودوداً. وقد تمّ نصب معسكرنا وسط بعض أشجار السنط ذات الانتشار الحسن، وهنا كان جمع غفير من الصيعر من كل جنس ولون، صغراً وكباراً، أغنياء وفقراء على السواء، قد تجمعوا حول نار القهوة في دائرة مرنة كانت تتسع دوماً. وكان مكاني محجوزاً إلى البعيد قليلاً كالعادة، ولكن من الواضح أنه لا يمكن أن يكون هناك هدوء إلا بعد أن أتبادل التحايا مع كل فرد حاضر. إن قبيلة «الصيعر» لا تسلم باليد ولا حتى تقبض اليد باليد عند السلام، وإنما تضع راحة على راحة وتنحني للأمام إلى أن يتلامس طرفا الأنفين. وتكتمل العملية باستنشاق قليل من هواء النَفَسْ مثلما يحدث في التقبيل مع الهمس بكلمة خفيفة، ويتكرر ذلك بدقة متناهية مع كل قادم جديد. ولم يكن لدى ضيوفنا أي أخبار محددة ليتناقلوها بينهم إلا خبر انتظارهم الطويل لنا وشكهم إلى حد ما في توقع وصولنا. ولم أستطع أن ألحظ أي علامة ولو واحدة من علامات الفتور، ناهيك عن أي مظهر للاستياء أو المعارضة. بل على العكس تماماً كان هناك الكثير من المديح والثناء على ابن سعود. وكانت السيارات بالطبع موضوع كثير من الاستغراب والفضول، على الرغم من أن بعض أولئك الحاضرين قد رأوها بالتأكيد من قبل، وربما يكونون قد ركبوا فيها أثناء زيارتهم لحضرموت. كما كان المذياع مركز الاهتمام الأكبر لأولئك الذين مكثوا الليل معنا بالمعسكر. وسرعان ما انتشرت أسطورة تقول: إنني في كل ليلة على اتصال لاسلكي مع ابن سعود والذي يعلم -تبعاً لذلك- جميع تحركاتي يوماً بيوم. وكان هذا الاعتقاد فيه مزايا شديدة الوضوح لنا حتى إننا لم نبذل أي محاولة لتصحيحه، وهم يستطيعون أن يسمعوا بأنفسهم لغتهم تأتي إليهم عبر الأثير من القاهرة والقدس،

ولكن كان أشد ما أثار فضولهم ضربات المورس لمحطات اللاسلكي في مكة والرياض.

إن وادي العبْر يتشكل، على ارتفاع حوالي مئتي ياردة فوق الآبار، من اندماح شعبي أرغد والمدرى. والأول يأتي نازلاً على طول حافة تل بامخاري من منطقة مرتفعة تقع إلى الشمال الشرقي ، بينما يجري المدرى، الذي لزمناه حتى ألسنته السفلى وهو يجري إلى الجنوب تقريباً من النقطة التي يندمج معه فيها شعب العريجا. ويرتفع كل من المدرى والعريجا في المنطقة المرتفعة حول «دوائر»، ويوجد بالأول بئر تسمى «دحل» في بطنه وعلى بعد حوالي ثلاثة أميال قبل «العبْر». يسير وادي العبْر، بعد تشكيله هكذا بجوار الآبار في منحنى واسع من حوض التل على جانبه الجنوبي الشرقي، ويجري بالعرض في سهل رملي بعد ذلك في طريقه إلى كثبان السبعتين.

إن قبيلة الصيعر تفخر فخراً شديداً بماء العبْر، ولكن يبدو أنها لا تعرف إلا القليل عن تاريخه الحقيقي. وفي وقت من الأوقات، كما قالوا دون أن يكون ذلك في حدود ذاكرة أحد من الأحياء، امتد حزام ضخم عظيم النماء من أشجار النخيل في الوادي على طول المنحنى بضفته اليمنى. وفي تلك الأيام كان يوجد ما لا يقل عن ستين بئراً في الواحة. وذكر آخرون أرقاماً مختلفة حيث قال بعضهم إن عدد الآبار يصل إلى ١٥٠ أو ١٦٠ أو ٢٠٠. وانخفض عدد هذه الآبار الآن إلى ثلاثة، على أنه في الحوض الرئيس باتجاه المجرى يوجد عدة ينابيع في القناة الرملية. وتقع الآبار الثلاثة الباقية على «قيد الحياة» على مسافات فاصلة تتراوح بين ٢٠٠ أو ٣٠٠ ياردة قريباً من الضفة اليمنى، مقابل الحصن الصغير المهدم الذي كان يقوم ذات يوم على حمايتها. هذا الحصن، الذي يوجد به فوهة بئر مبطنة بالأسمنت ولكنها لآن

جاة داخل أسواره ويحتمل أن يكون قد بناها كما ذكرنا، بالفعل ابن قملة[1]، في زمن فيصل[2]. وتنسبه روايات أخرى إلى عهد سعود الكبير[3] في بداية القرن التاسع عشر، أو إلى أحد شيوخ «الصيعر» المنسيين من الماضي السحيق. ومنذ زيارتي تم إصلاح أو استبدال المباني القديمة المهدمة بمبنى جديد تحت رعاية الحكومة البريطانية لسكن حامية صغيرة ومحطة لاسلكي[4].

ومن وقت وصولنا وحتى ساعة متأخرة بعد الظهر كانت الآبار مشغولة بتقديم الماء لآلاف مؤلفة من الحيوانات. إن عطاءها لا يمكن أن ينفد فيما يبدو، وكان أفضلها البئر الأوسطى - وهي بعمق أربع قامات ومعها بركة صغيرة من المياه، وتشاركها القاع كومة من الرمل المبلل بالماء. وفوهة البئر أوسع إلى حد ما من القصبية وتميل نحوها من جميع الجوانب. والمنحدر الدائري مبطن بالحجارة (لحجز الرمل الذي يوجد فيه البئر) لعمق يبلغ حوالي ثلاثة أقدام. والبئر السفلى من الثلاثة تعد أقلها قيمة وأهمية، بينما البئر التي توجد في مقابل الحصن بالضبط تشبه بصورة عامة البئر الوسطى. وفي الوقت الذي رأيتها فيه كان الماء يخر في القاع من تحت الصخر ويقرقر بصوت مسموع مثل صوت خرير الجدول. ويقف الحصن على رف من الحجر الرملي بارتفاع حوالي ثلاثين قدماً على طول الضفة اليمنى للقناة.

---

(١) برز من ظهر من أسرة بن قملا مناصراً للدعوة والدولة السعودية الأولى هما الأخوان ناصي وعلي وللمزيد من التفصيلات عن جهودهما انظر: باختان، جواهر تاريخ الأحقاف، جـ٢، ص٢٢١-٢٢٢؛ البكري، من جنوب الجزيرة العربية، ص١٤٠-١٤١؛ الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي: ص٢٥٧، البار، سقطري الجزيرة المسحرية، ص٩٨-٩٩؛ السقاف: عبدالرحمن بن عبدالله، حضرموت بلادها وسكانها، مجلة العرب، جـ١١، ١٢، السنة ٢٨، الجماديان، ١٤١٤هـ، ص٨٢٥-٨٢٦ أيضاً، جـ١، ٢، سنة ٣٠ رجب وشعبان ١٤١٥هـ، ص١٠٠-١٠١؛ جـ٩، ١٠، سنة ٣٠ الربيعان، ١٤١٦هـ، ص٦٤١-٦٤٢. (المراجعون).

(٢) المقصود: الإمام فيصل بن تركي الذي سبقت الإشارة إلى امتداد حكمه إلى هذه المناطق. (المراجعون).

(٣) المقصود: الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود من أبرز حكام الدولة السعودية الأولى، كان حكمه خلال الفترة من (١٢١٨-١٢٢٩هـ). (المراجعون).

(٤) ذكر أنها انسحبت في أغسطس ١٩٣٨م. (المؤلف).

وكان أغلب البدو الحاضرين بالطبع من «الصيعر» ولكن كان هناك عنصر من الكرب معهم بالإضافة إلى مجموعة صغيرة من الفقرا من شبوة نفسها. وكان هناك أيضاً قافلة صغيرة توقفت هنا في طريقها من حضرموت إلى مأرب، أو ربما إلى مناجم الملح في «وادي أبراد» ومن وجهة نظري كان عنصر الفقرا ذا أهمية عظيمة وفورية بالنسبة لنا؛ ولذلك سرعان ما امتدت وشائج الود مع اثنين من أولاد أخ المشايخ أو شيوخ البُريكي في شبوة، هما سالم وعلي ابنا عفيشة.

وكان أصغر الرجلين، مبارك، جميل المحيا بصورة معقولة، غير مميزة، وكان من الواضح شغفه بالعون والمساعدة. أما أخوه الأكبر، سعيد، والذي يميزه حول طفيف في عينيه، وبروز في أحد أسنانه، ثبت في النهاية أنه يتمتع ببعض الصفات الحميدة من الحكمة وصواب الرأي التي كنت أشك فيها. وقد أدرجنا كليهما في الرحلة إلى شبوة، ولكني اصطفيت سعيداً ليكون ضمن جماعة السيارة.

وتزعم «الصيعر» أنها تنحدر بصورة مؤكدة من قبيلة قحطان عن طريق أحد الأسلاف يسمى المقداد بن الأسود الذي يقال إنه صحابي من صحابة الرسول ﷺ بالقدر نفسه تدّعي الكرب بأنها أيضًا من أصل نبوي عن طريق سودان وهي عشيرة أشراف استقرت لزمن طويل بين السبي في رنية حيث جاء -كما يقولون- الجد الذي كان أول من استقر في ضواحي حضرموت. وفي الحقيقة يجوز لكلا القبيلتين أن تدعي بشكل معقول بأن لديها تاريخاً طويلاً كمقيمين محليين أكثر مما تعلم، لأنهم بالتأكيد من قبائل «الكرباني» و «أصراتي» الذين ذكرهم بليني من بين قبائل جنوبية أخرى[1].

ويبدو أن ماعز قبيلة «الصيعر» بيضاء اللون في معظمها وأكثر عدداً من الأغنام. كما أن ثمنهما غالٍ جداً أيضاً حيث يصل سعر الواحدة منها إلى خمسة دولارات

(١) عن أصول هاتين القبيلتين وتفريعاتها المختلفة، انظر: الهمداني، كتاب الإكليل، جـ١، ص١٩١، جـ٢، ص٥٢، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط٣، بيروت. صفة جزيرة العرب، ص١٦٨-١٦٩، تحقيق: محمد ابن علي الأكوع، ١٣٩٤هـ، دار اليمامة الرياض، البلادي، بين مكة وحضرموت، رحلات ومشاهدات: ص.ص١٣٩-١٤٩، ط١، دار مكة. (المراجعون).

(ماريا تريزا)، مقابل اثنين فقط في المنطقة الفقيرة المجاورة لنجران وحدود اليمن. ومما لا شك فيه أن قرب سوق حضرموت يفسر سبب الأسعار الأفضل التي يمكن الحصول عليها. أما أسعار السلع الأخرى، مثل: الحبوب والتمور والقهوة وغيرها، فقد كانت عالية كذلك. ووحدة الوزن المحلية -مثلما الحال في حضرموت- هي الرطل الذي يساوي اثني عشر دولاراً (ماريا تريزا).

وفي المظهر العام واللباس كان أهل الصيعر يبدون لي قريبين جداً من بدو نجد، ربما أصغر منهم في المتوسط وأنحف منهم في الجسم. وكان الكثير منهم جميل الملامح، بهي الطلعة، مع بعض الفتنة والرقة والعيون الناعمة، بينما كان لبعضهم أنوف الساميين الكبيرة والواضحة. وحديثهم كان رائعاً بصورة بارزة لنطقهم الطويل جداً لحرف العلة «ا» و الإدغام «أو» و «أي» والتشدق الجذاب في الكلام. والشيخان الكبيران في القبيلة «يسلم بن جربوع» و«عبدالله بن عون ابن (ملهي)، ويمثلان العنصر شبه المستقر الذي يتركز في ريدة آل حاتم وهي مجموعة متناثرة من المنازل قرب رأس «وادي مخية» في المرتفعات شرق «العبْر». ويوجد شيخ آخر، هو طناف ابن محمد بن رميدان، وله مقر شبه دائم في «ريدة آل بلَّليث» على بعد حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلاً شرق «ريدة آل حاتم» ويسيطر على عناصر البدو الرحل الذين تعد هذه الآبار مقرهم المعترف به.

إن مجموعتي هاتين القريتين تعرفان بصورة مشتركة باسم «ريدة الصيعر». وعشيرة «قنيبر» تحت زعامة «علي» قد انفصلت الآن بشكل دائم تقريباً عن الجزء الرئيس من القبيلة، وأصبحت قسماً من مجموعة رئيسة ثالثة، هي «آل معروف»، وشيخها البارز هو «عبدالله بن سالم بن معيقل». هذا القسم قد انضم إلى المملكة العربية السعودية ويتجول في الصحراء شرق نجران. وقد رفضوا بصورة قاطعة دعوة حديثة لهم من شريف بيحان، وهو حليف بريطاني، للعودة إلى حظيرة الجماعة. ووراء «الصيعر» نحو الشرق، على طول المرتفعات وامتداداً نحو الرمال تقع

«العوامر». إن وادي مخية ينحرف شمالاً في نهاية الأمر إلى الربع الخالي ويشكل الخط الفاصل بين الاثنين، بينما وراء «العوامر» تأتي «المناهل» التي تمتد سلسلتها صوب الشمال من النبي هود في الامتدادات السفلى لوادي حضرموت حتى الرمال الشمالية.

وأثناء فترة ما بعد الظهيرة انتهزت فرصة الهدوء في أنشطتنا الاجتماعية - فقد أدت وجبة طيبة من اللحم إلى إبعاد الزاور عنّا وجعلتهم يغطون في نوم عميق عند القيلولة. وتسلقت قمة «بامخاري» مع دليل من الصيعر يدعى «مبخوت». لقد مشينا أطول مما كان يبدو لنا على المنحدر الصخري الرقيق من حافة الوادي إلى سفح التل. وكان جانب التل نفسه وعراً وغير ملائم بصورة زائدة عن الحد بألواحه وشرائحه وكتله الصلبة الخشنة الناتئة بشكل حاد والمكونة من الحجر الرملي الرمادي. وفي المستويات الأعلى كان سطح الأرض مغطى «بورد الرمل» والأشكال المتنوعة الأخرى من الشظايا التي تعريها الريح. والجبهة الجنوبية للتل كانت جرفًا بارزاً حاداً من صخور صلبة عارية، وكانت أجزاؤه السفلى مثقلة بكتلة من ركام الحجارة المفككة وصخور جلمودية ضخمة. وقد بدأنا التسلق في وقت متأخر جداً ولم يتسع لنا المجال للوصول إلى القمة الرئيسة، واكتفينا بواحدة قريبة في الطرف الأدنى من سلسلة حادة تجري بينها وبين القمة العليا، بارتفاع حوالي مئة قدم أو أكثر. وعلى أي حال، عندما ارتقينا هذه القمة السفلى كنا على ارتفاع ألف قدم تماماً فوق معسكرنا وتَمكَّنا من إلقاء نظرة ممتازة على الرغم من وجود الضباب القليل نتيجة العاصفة الرملية القوية، التي هبت خلال بداية فترة مابعد الظهر لمدة قصيرة.

والمعلم الأرضي الرئيس الذي رأيناه من هنا كان الصف المنسق الرائع من الجُرُفْ والأراضي الرأسية التي تمتد من سلسلة تلال «بعرورة» المنبسطة القريبة جداً منا إلى الشرق حتى نتوء طرف العين الذي يقع في جهة شرق - جنوب شرق وعلى مسافة نائية، وهناك يواصل خط الجُرف سيره على طول الجانب الشمالي لرمال السبعتين بلا توقف ليشكل الضفة الشمالية لوادي حضرموت بالمعنى الدقيق. إن سلسلة تلال

«بعورورة» والأرض الرأسية تخفي وادي شعيب ميفعة الذي توجد فيه بساتين نخيل «جلهم» و «أم الضيعة» و «الفضية» ولكن لا يوجد سكان. إن «الغيل» أو الجدول الجاري الذي يروي هذه البساتين في تلك الأودية مشهور بأنه ينتج حمى قاتلة، ولا يقوم أصحاب البساتين من الصيعر بزيارة تلك الأودية إلا لجني محصول التمر فقط. وهناك وادٍ مشابه خلف سلسلة تلال «المخاضة» والأرض الرأسية، بعد «بعرورة» مباشرة على اليمين، يخفي حدائق النخيل لكل من «باقم» و «الجابية» و «الجويبية»، بينما يخفي سور «طرف العين» أو الواحة بذلك الاسم نفسه، وهي آخر حد إقليم قبيلة «الصيعر» في هذا الاتجاه. ومن الأرض الرأسية تسير حدود الصيعر - الكرب بمحاذاة الحافة الشمالية لرملة السبعتين.

وباتجاه الغرب من خط الجرف المذكور أعلاه، وامتداداً من التلال في حوض «العبْر» حتى خط الرمال مع وادي «العَبْر» كحدود غربية له ، يقع سهل «جو طلع» الواسع الوعر الذي يسير خلاله درب العَبْر - حضرموت، متجاوزاً جبيل «قرن الذيب» الصغير. ويقف تل مشابه، هو «قرن الخرص» كعلامة فاصلة بين «جو طلع» و«جو الخط» وهذا الأخير يقع إلى الغرب من «وادي العَبْر» . ويعترضه درب العَبْر - شبوة في خط جنوبي تماماً إلى أن يصطدم بالحاجز الرملي.

وقد أدى هطول مطر غزير لوقت قصير إلى ترطيب العاصفة الرملية الأولى التي كانت تهب في أوائل فترة ما بعد الظهر، ولكن الريح الشمالية التي كانت تتراوح من قوية إلى معتدلة، استمرت في الهبوب بهبات حادة. وظلت السماء ملبدة بالغيوم طول المساء والليل، واضطررت أن أتخلى عن مراقبة النجوم يأساً من تحسن الطقس. وكانت الأمطار المتقطعة تطردني للسيارة في فترات متفاوتة، بينما أدى انغماسي بإفراط في شرب حليب النياق الوفير الذي قدمه ضيوفنا بكرم غامر إلى اضطراب الهضم عندي شيئاً ما. لقد كانت ليلة شنيعة بشكل عام، على الرغم من أنني نمت نوماً هنيئاً بدرجة كافية - مع بعض فترات التقطع - من الثامنة مساء حتى السادسة

صباحاً. وكنت أتمنى لو بدأت جماعة الإبل الرحلة مبكراً، ولكني استيقظت لأجد المعسكر سليماً تاماً كما هو. إن سوء الطقس في الصحراء قادر على أن يولد الكسل وبطء الحركة، ولكن سرعان ما جعلت رفاقي جاهزين لبدء التحرك فوراً. في الحقيقة انطلقت حيوانات الحمل مبكراً عند الساعة السابعة، وركب باقي جماعة الإبل بعد ذلك بنصف ساعة. وفي الوقت نفسه جاء زوار مبكرون متفرقون إلى دائرة قهوتنا ليتجاذبوا أطراف الحديث معي عندما كنت أرشف قدحي من الشاي. ولذلك كنت الساعة تقترب من التاسعة قبل أن تنطلق السيارات نازلة في الوادي. وكان «مبارك» قد رافق جماعة الإبل، ومعي الآن «سعيد» إلى جواري كدليل. وسرعان ما انقشعت الغيوم، وصفا الجو، ولكنه كان صباحاً رطباً فاسد الهواء بدرجة حرارة تصل في الساعة السابعة إلى أربع وثمانين درجة. وكان ارتفاعنا هنا يصل تقريباً إلى ٣٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، أي أقل بحوالي ١٠٠٠ قدم فقط من الشضيف. والمسافة الحقيقية التي قطعناها من هناك حتى «العبْر» كانت ١٥٢ ميلاً حسب عداد السرعة بالسيارة، والوقت الذي استغرقناه بالضبط كان تسعين ساعة من البداية إلى النهاية؛ وهذا أداء حسن للإبل التي لن تقطع في الظروف العادية أكثر من خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلاً على الأكثر في اليوم.

والأميال التسعة الأولى من رحلتنا تجاه شبوة كانت تقع في وادي «العَبْر». وقد بدأنا الرحلة بشكل منحوس شيئاً ما، حيث غرزت السيارة على بعد ميل من الآبار. ولكن كل شيء مضى على ما يرام بعد ذلك. وكانت ضفتا القناة من حجر زمعي جيري وعر ذي لون بني، وكان الوادي في أجزاء منه مكسواً تماماً بأشجار السنط الظليلة من السمر والمرخ والراك. وقريباً من تحت الضفة اليسرى على بعد حوالي ميلين أسفل «العَبْر» تقع مجموعة من ينابيع أو صفر الماء في الرمل. هذه هي «تنضل». وطار سرب صغير من حوالي اثني عشر إلى خمسة عشر طائراً من طيور السيسي من قرب المياه ليلوذ بالصخور والشجيرات المجاورة. وقد اصطدت واحداً

منه ووضعته في كيس بالإضافة إلى الطـائر المغرد أيضاً. وبرز رجل من خيمة وحيدة قريبة منا ليتبادل التحيات والأخـبار معنا. وتصادف أنه كان «صيعري» وهو الذي كان في الحصينية بوادي حبونا عند وقت مروري، وكان من الواضح أنه مسؤول عن التبليغ عن زيارتنا المرتقبة.

ويعد ذلك بمسافة قليلة توسل إلينا سكان مخيم صيعري صغير أن نتأخر لتناول الطعام معـهم، ولكنا تذرعنا بحاجتنا للوقت وواصلنا السـير. وقد اتسع الوادي الآن بصورة كبـيرة، وتجاوزناه إلى سهل «جو الخط» الرملي المنبسط جـوار تل «قرن برقة» (برقاء)، وهو تل صغير خارج سلاسل «بـرقة المُغلل»، ويقف بعيداً بمسافة قليلة عن الضـفة اليـمنى للوادي. ويلفنا الآن من جـميع الجـوانب سـهل هائل من الرمل ذي الحبيبات الثابتة. وإلى البعيد ظهر الخط القرنفلي «لرملة الخط» وهو الاسم المحلي لهذا الجزء من رملة الـسبعـتين. وتنتشر هنـا وهناك إبل الصيعـر في مجـموعات تـتجول للرعي، وتبدو في أشكال رائعة بفعل السـراب. ووراء الحاجز الرملي ظهرت رقع من الأرض الرأسيـة من الجرف الجنوبي حول وادي دُهر. وتوقفنـا للحظات قليلة لشرب الحليب المكسو بالزَبَدْ، الذي حلبـه سعيد من ضرع بعض النوق الضخـمة التي كانت جالسـة وهي مكررة القلب من الغم أو الملل في تيه الصحـراء غير الظليلة قـريباً من دربنا. وكانت مـراعي هذه المنطقة تتكـون بصورة أساسـية من «النصي» و «الضـرمة» وكانت تبدو وفيرة النماء بما فيه الكفاية.

وقد سرنا عبـر السهل لعشرة أميال إلى أن اقتربنا من حـافة الرمال، حيث كنا نخطط للراحة هناك من حرِّ النهار في بقعة صغيرة من الشجيرات الهزيلة تعرف باسم مرخـة. ووصلنا هناك عند الظهـر، ولم تصل جمـاعة الإبل إلا بعـد ذلك بكثـير. وكانت المسافـة من «العَبْر» تبلغ حوالي عـشرين ميلاً فقط وانخـفض الارتفاع حوالي

٣٠٠ قدم. ولقد قنعت بظل السيارة، وتركت أجمات «المرخ» الضئيلة الأربعة لباقي الجماعة الذين حصلوا أيضاً على الخيام عندما وصلت الأمتعة.

والغريب أن هذا الظل غير الكافي لتلك الشجيرات الضعيفة قد جمع عدداً مثيراً للدهشة من الطيور، والتي بقيت في مكانها على الرغم من تطفلنا عليها - وكان منها طيور القنبر، واثنين من الصُّرد الرمادي، والذي بعث على السرور أكثر من أي شيء آخر، كان وجود طائر وحيد من العصافير المغردة، كان بلا شك في طريقه من بعض البلدان الشمالية القاصية. ولم يكن هناك على الأرجح أي طيور أخرى في حدود نصف قطر قدره عشرة أميال من هذه البقعة، وعلى كل حال لم نر أي طائر آخر على الإطلاق.

في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، يبدو أن عاصفة رعدية قوية قد تجمعت في الشمال والشمال الشرقي، وكانت جميع المناظر الطبيعية خلفنا على قوس واسع من الشمال الغربي حتى الجنوب الشرقي قد اختفت وراء جدار من الرمل يتقدم بثبات نحونا. وكان غداؤنا من العصيدة جاهزاً لتوه، وتم استدعاؤنا للطعام قبل أن تصل العاصفة. وعلى أي حال فقد كان الطعام ساخناً جداً ولا يمكن بلعه بسرعة، وفي غضون دقائق قليلة أصبح غير صالح للأكل. إذ كانت العاصفة قد انفجرت علينا بكل عنفوانها وهددت باقتلاع الخيمة، التي أمسكنا بها ضد الريح بينما استقر الرمل بصورة كثيفة فوق عصيدتنا التي أكلنا نصفها. ولعشر دقائق اكتسحنا الجزء الرئيس من السحابة الرملية. ثم هبط هدوء مفاجئ قصير، تبعه كتل رملية صغيرة تتسابق فوقنا في ترتيب واضح. وبعد كل ذلك قصفتنا عاصفة من ريح مع قطرات قليلة ثقيلة من المطر. ثم جاء الهدوء، الذي نزل علينا بشكل مفاجئ مثلما جاءت العاصفة تماماً وكان الرمل قد انتشر في كل مكان، ودفن أمتعتنا وملأ أفواهنا وأنوفنا وعيوننا وآذاننا وشعرنا. ولقد كانت هذه بحق أول عاصفة رملية حقيقية في الرحلة، ولكنها كانت نذيراً للكثير الكثير الذي سيأتي في الأيام القادمة لنا.

وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً عندما مشينا عقب العاصفة باتجاه الجنوب الغربي على طول حافة الحاجز الرملي. وكان على الإبل أن تسير في طريق شبوة العادي، الذي كان الحزام الرملي فوقه خفيفاً نسبياً، ولكنه غير صالح من الناحية العملية لسير السيارات. وكنا سوف نتقابل على الجانب البعيد من الرمال، حيث يكون السير سهلاً للإبل من هناك إلى شبوة في الصباح.

وهكذا خططنا، ولكن القدر كان له تدابير أخرى في جعبته لنا. ولحوالي تسعة أميال انطلقنا بالسيارة في خفة ورشاقة وكنا نسير بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة فوق سهل متدحرج كالموج من الرمل الثابت تماماً والوعر قليلاً بغطاء من كتل الحشائش الرقيقة. وهبت ريح شديدة من الشرق أدت إلى تطاير الرمل في ألواح وشرائح علينا عندما توجهنا للجنوب أو الجنوب الغربي . ثم وقعنا على الحاجز الرملي نفسه في قسم يسمى «رملة نصيبة» وعلى الفور تقريباً توقفنا بصورة مفاجئة قرب قمة تل حاد كنصل السكين، واضطررنا إلى التقهقر للخلف لندور حوله، وكان ذلك يسيراً بما يكفي. ولقد كان المنحدر النازل حاداً بما فيه الكفاية على وجه التأكيد، ولكن وراءه كان هناك منحدر صاعد طويل وسهل ذو سطح صلب نسبياً. وهكذا واصلنا السير عبر أمواج ذات شكل مخيف في بحر من الرمل.

نذهب الآن غرباً، ثم نتجه للجنوب الغربي، وننحرف الآن أكثر للجنوب، ونحن ندور حول العوائق في طريقنا. وكان النور يتضاءل بسرعة، والريح قد غيرت اتجاهها واستدارت نحو الجنوب الغربي وتقصف بالرمل على زجاج السيارة الأمامي. ثم جاء الغسق، ولكن سعيداً -الذي يعاني من قصر النظر في وضح النهار ويعتمد الآن على حواسه في التوجيه والإرشاد أكثر مما يعتمد على عينيه- كان يحرضني على مواصلة السير. وقال: إن النهاية قريبةٌ. وفي الحقيقة كانت أقرب مما يتخيل. ففي ظلام الشفق غطست في مستنقع من الرمل الناعم القريب من قمة حادة مع جرف

منحدر خلفها. وهناك انطمرنا. وكان الظلام الدامس قد لفنا بأستاره السوداء بدرجة يصعب معها محاولة الخروج. ولذلك مكثنا هناك طول الليل.

وكانت ليلة ليلاء !! إن تجربة حياتي كلها لا يمكن أن تشبه الليلة في التعب البدني المحض. فالعاصفة الثلجية العنيفة وحدها ربما تكون هي الأسوأ من تلك العاصفة الرملية التي قبضت علينا بقبضتها لساعة تلو ساعة. لقد كانت بحق عاصفة من الرمل - الجاف، الساخن، النظيف. ولم نتمكن من إشعال النار بأي حالة من الأحوال في مثل تلك الظروف حتى نعد لنا شاياً أو قهوة، كما لم يكن هناك ولو قطعة صغيرة من أغصان الشجيرات المقطوعة لأميال حولنا كي نستعملها كوقود : ولا يوجد إلا قليل من نباتات «العلقي» الخضراء. ولم نستطع إشعال لمبة، ولم يكن معنا من طعام إلا التمر الذي أصبح تقريباً غير صالح للأكل فور تعرضه لذلك الرمل المتطاير. واكتشفت أن معي بقية علبة بسكويت وإحدى علبتي السردين اللتين كنت أحملهما للطوارئ، إذ إن الأخرى تم استهلاكها منذ زمن بعيد على قمة «ميهر» ولكي أفتحها كان عليّ أن أنتظر حتى تهدأ العاصفة، وخبأت نفسي وراء ظهر السيارة. ولكن الرمل، على أي حال، قد اكتسح الزوايا من حولها ومن فوق سقف السيارة. واضطررت أن ابتلع السردين بسرعة البرق بمجرد فتح العلبة. ولم أبالِ بمشاركة رفاقي، فماذا عساهم أن يجدوا في مثل تلك الأسماك الصغيرة القليلة وهم عدد كثير من البشر. وكانت راحتي الوحيدة في خضم هذه الاضطرابات جميعاً تدخين سيجار «بورما»، الذي لم أتمكن من إشعاله إلا بإنفاق الكبريت بإسراف، وكنت أدخن خلف حاجز من الأمتعة تم ترتيبه على طول الدواسات الجانبية بالسيارة لمنع الرمل من أن يتسرب لي من أسفل. ثم تمددت على الأرض لأنام، كما أنام في الرمل. وكانت الليلة معتدلة الحرارة حتى إنه لم يكن من الضروري إعداد فراش على الإطلاق. وكانت الريح تعصف حولنا بلا توقف، وترشنا بين فينة وأخرى بقطرات مطر ضئيلة من السماء ذات اللون الرصاصي. وكان الرمل يطير من خلالنا مثل أمواج

من الرغوة. ولا أستطيع أن أحدد متى توقفت الريح، فلقد سقطت صريعاً للنوم، ونمت نوماً عميقاً حتى الفجر.

ومن المرجح أن رفاقي لم يناموا بعمق مثلي، فلم تكد الساعة تصل الخامسة صباحاً إلا والمعسكر يعج بالحركة وانشق الصبح علينا ببراءة مثل براءة الأطفال، وكان بارداً، مضيئاً على عكس ظلام تلك الليلة الجهنمي. وكان أحد الفئران قد تمّ الإمساك به وإحضاره لي من الرمال، كما زارنا أيضاً غراب أسود. إن مصيبتنا، عندما رأينا حلنا في نور الصباح، كانت مثيرة للضحك والسخرية تقريباً. فالسيارات كانت شبه مدفونة في الرمل، وكانت سيارتي أسوأ بقدر كبير من الأخريات، نظراً لأنها قد اندفعت في جرف ناعم بسرعة عالية. وكانت شجيرات «العلقي» وحشائش «النصي» الشحيحة غير مفيدة لاستخدامها كوقود، وكانت المطمورة غير مفيدة لدعم العجلات في الرمل. وكان علينا أن نستخدم ألواحنا الخشبية والحبل لأول مرة في الرحلة بالكامل. ولو انحرفنا فقط مئة ياردة لليمين لكنا قد تفادينا الوقوع في كل هذه المتعب. والآن لا ينفع الندم وعلينا أن نعمل على إخراج السيارة، في تبديل بطيء بين الرمال، من مكان انغراسها في الرمل إلى حافة المنحدر الرملي الحاد، والذي سوف تنزلق منه بحكم ثقلها إن لم تنقلب رأساً على عقب. وليس من الوارد إمكانية إعادتها مرة أخرى للمنحدرات الرقيقة على الجانب الآخر. وقد لاحظت بصورة عرضية أن آثار سيرنا في الليلة الماضية قد انطمست تماماً بفعل العاصفة.

وفي الساعة السابعة والربع من ذلك الصباح، وبعد الكثير من المحاولات الفاشلة، تمكنّا من إخراج السيارة إلى حافة الجرف. ووقفت قريباً منها لالتقاط صور فوتوغرافية لنزولها على المنحدر عندما كان محمد يقودها ببطء على الجانب تقريباً. وقد وصل القاع بلا مشقة وانطلق بها بوحشية صاعداً المنحدر الرقيق المقابل حتى وصل إلى سلسلة التلال التالية، وهناك استأنفت الجلوس وراء المقود بينما رجع هو لإحضار الشاحنة. وكنا لا نزال في قسم «نصيبة» من الرمال، وكانت سلسلة التلال

الرملية العالية «الأخيضر» ليست بعيدة منا عن يسارنا. وكان السير يسيراً بدرجة كافية على روابٍ رمليـــة ثابتـــة ومستديرة تشكل طريقاً متعرجاً. وفي المنخفضات كانت هناك أحيـاناً مواضع صلبـة من التربة خاليـة من الرمل. وفي مثلهـا، بل حتى على المنحدرات الرملية المنخفضة وجدت كتـلاً من المحارات الصغيرة الحلزونية، التي توجد عادة في الميـاه العذبة، منتـشرة في منطقـة واسعة. وكـانت معظم هذه البـقع مغطاة بصورة خفيفـة بالحصى الصغير وشظايا الحجارة، وفي كثيـر من الأماكن كانت تنتشر على الأرض شظايا مكسـرة من بيض النعام، وقد وجـدت بيضة واحدة مـتهشـمة، ولكنها كـاملة تقريباً، وهي في مكانهـا. كما رأينا أيضـاً هنا وهناك رقائق من أدوات حجر الصوان والزجـاج البركاني وكسراً صغيرة من العظـام. وكانت السحالي القليلة الموجودة هي عـلامة الحيـاة الوحيدة في هذا القـفر. وبدا لي في ذلك الوقت -وهذا الاستنتاج يبدو أن له ما يبرره بالنظر في جمـيع الدلائل التي جمعتها في هذه المنطقة- أن السطح الطيني المكشـوف في الأودية بين سلاسل التلال يـجب أن يكون جزءاً من قاع نهر قديم ويحتمل أن يكون واسعـاً جداً، والذي قد سحب لاحقاً وبالتدريج على مر القرون الرمال المتطايرة من الصحراء لتستقر في المخبأ النسبي في تجويفته. وهكذا، شيئاً فشيئاً تشكّلت التلال الضخمة على طول خط القناة القديمة وعلى كلا جانبيها إلى أن أصبح مجـرى النهر -بعد مرور الوقت المناسب- شريـطاً عريضاً من الرمل. هذه الرمال تمتـد من التلال على حدود اليـمن فيمـا جاور خط بيحان - مـأرب - الجوف بدون انقطاع حتى مدخل وادي حضرمـوت كما هو اليوم. وسوف أناقش هذه النقطة بمزيد من التفاصيـل في الفصول التالية، ولكني أود أن أستبق هذه المـناقشة بالقول إنه ذات يوم من الأيام كان وادي سـبأ -أو وادي أبراد ووادي حضرمـوت- يشكلان نهراً واحداً أو قناة سيل وحيدة.

ومن نقطة دخـول الحاجـز الرملي في عـصر اليـوم السـابق إلى الموضع الذي اضطررنا للتوقف الإجباري فيه ليلاً كنا قد قطعنا اثني عشر ميلاً. وبعد حوالي خمسة

عشر ميلاً أخرى قطعناها في الصباح وصلنا إلى قاع واد عادي مكوّن من الحبيبات الثابتة الجيدة، والذي لزمنا مساره مسافة ما في اتجاه جنوب - شرق، تقريباً نحو حضرموت. ولكن - على أي حال - كان طريقنا المحدد يميل أكثر إلى الجنوب واجنوب الغربي ، ومن ضفة منخفض هذا الوادي تمكنا من إلقاء أول نظرة لنا على معالم شبوة - مثل قمة «النسر الغربي» البازلتية التي تبرز فوق كتف الرمال نحو الجنوب الشرقي مع بعض التلال المجاورة لها. وفي الوقت نفسه على الجانب الآخر من طريقنا، وإلى الغرب والشمال الغربي نظرنا لأول مرة إلى سلاسل تلال عارين وطرباق والتي رأينا منها -بعد عدة أسابيع لاحقة- الكثير عن كثب أثناء رحلة عودتنا. وبعد ذلك تظهر كتل الرمال الشاهقة لكل من «خل دمنان» بصورة واضحة عن يسارنا على بعد ميلين تقريباً. والآن ولينا وجهنا شطر الأخير، فهو المعلم المعترف به كمدخل للرمال في هذا الجانب، ومررنا قريباً منه في درب توجد به خطوط من بقع محدودة من التربة البيضاء ذات الطفل الرملي في سلسلة من المنخفضات ملاصقة لحافة الحاجز الرملي. ولم يستغرق الأمر منا وقتاً طويلاً للخروج مما بقي من الرمال، وسقطنا في سهل الشقيقات المتموج والمكسو بالشجيرات الخفيفة، والذي يجري تقريباً جنوب شرق على طول الحافة الجنوبية لرملة السبعتين، بعد أن قطعنا مسافة إجمالية قدرها ثلاثة وثلاثون ميلاً على امتداد الأخيرة.

ولأغراض عملية انتهينا عند هذا الحد من الحاجز الرملي، ولكنها لم تكن على الإطلاق نهاية الرمال التي امتدت مسافة هائلة جنوباً حتى حافة السهل الضخم الذي تصب فيه أودية مختلفة من الجنوب - مثل: «جردان» و «همام» و «ومرخة» وخلافها بمياه سيولها. ولكن «الشقيقات» على أي حال يشكل ممراً طبيعياً واسعاً عبر الحاجز من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي (على الطريق إلى مأرب والجوف). ويتكون من سلسلة من الأحواض الضحلة المتصلة بسلاسل تلال منخفضة تقع بين خطوط تلال «عرق

الأحمر» على اليسار و «عرق الساقية» على اليمين، ويندمج بالتدريج في سهل واسع من الحصباء الخفيفة يحده عن اليمين امتداد تلال «الساقية» المعروف باسم «عرق الضاحية».

وقد قطعنا عشرة أميال على طول درب الشقيقات حتى وصلنا إلى ذيل لقناة فيضان كثيف الشجيرات تسمى القصعة وتتلاقى مع ثنية في الحاجز الرملي يوجد بها عدد من التلال والسلاسل الجبلية في ارتفاع قمتي النسر نفسها. وألقينا عصا الترحال لنتوقف عند منتصف النهار ونتال قسطاً من النوم في القيلولة بين بعض أشجار السرح الطيبة على بعد أميال قليلة في أعلى القناة ، في حدود مرمى البصر من تلال شبوة المنخفضة، على مسافة عشرة أميال بالضبط.

ومن «العَبْر» إلى شبوة كانت المسافة التي قطعناها تبلغ ثمانية وعشرين ميلاً، وبهذا يصل إجمالي المسافة ٢٣٤ ميلاً من الشضيف. وقد انتهينا الآن من «الربع الخالي». وعبرنا بالسيارة دون أي صعوبة خطيرة. ولكن هل كان ذلك هو الربع الخالي؟ إن المنطقة التي قطعناه بالعرض مشمولة بالتأكيد في الدرب الهائل المذكور في خرائطنا بهذا الاسم الغامض نسبياً. وكان (ويمان بيري) في صدر القرن الحالي قد عدّ رحلته (التي انطوت على مصاعب ومشاق) عبر الرمال بين أنصاب و بيحان غطت الركن الجنوب الغربي من الربع الخالي. وكتب هانز هلفريتز[1]، عندما سافر من حضرموت إلى بيحان في عام ١٩٣٣م، عن طريقه قائلاً إنه يقع ضمن الحافة الجنوبية للربع الخالي. إن سحر هذا الاسم -مقروناً بالجهل المطبق بخصائص المنطقة إلى الشمال من طريقهما- قد جعلا هذين الرحالتين يدعيان مزاعم لا أساس لها، والتي يجب الآن نفيها بقوة الدليل القاطع والمفحم. إن درب رملة السبعتين ذا التلال العظيمة، والصعب في أجزاء منه، مثل أي جزء من الربع الخالي تجتازه طرق قوافل معترف بها لا تعد إلا

(١) هلفريتز رحالة ألماني زار حضرموت، ويعد أول أوروبي يصل إلى شبوة وقد طرد منها بسرعة، حقق شهرة في مجال التصوير أكثر من شهرته بصفته رحالة، له «الجزيرة العربية» و«فتح جنوب (غرب) الجزيرة العربية». جدول الرحالة الغربيون، ص١١٧. (المراجعون).

تحصى مما يصعب معه وصفها بأنها خالية. وفي وسط الجزء الأوسع منها تجاه الغرب يقع منجم صافر للملح، والذي يقوم بتشغيله بنشاط أفراد من قبيلة «عبيدة» من مأرب الحديثة. وفي منتصف الطريق تقع سلسلة تلال «عارين» حيث -كما سنرى لاحقاً- نجد الصخور محفورة بنقوش قديمة بالقرب من موقع ما زال يستخدمه الرحالة والرعاة من البدو. كما أن لسانه الشرقي الهزيل الذي يتصل في النهاية ببوابة وادي حضرموت المأهول بالسكان، يمتد لأميال خلال مسار واد تنتشر فيه الآبار والمساكن البشرية؛ ولذلك ليس من الضروري بالتأكيد معالجة الأمر بمزيد من الإفراط -إن طريق رملة السبعتين الرمي- ومن المهم إدراك حقيقة أن له اسمًا مميزاً ولا ينظر إليه محلياً على أنه مرتبط بأي شيء مع الربع الخالي -لا يمكن جعله ضمن الحدود الجغرافية للربع الخالي- والشيء نفسه يمكن أن يقال عن درب الصحراء والتلال الواقعة بينه وبين «العَبْر» ويمتد للغرب والشرق عبر الأخيرة حتى وادي «الجوف» وعلى طول الحد الشمالي للهضبة الجيرية المحاذية للضفة اليسرى لوادي حضرموت.

ولذلك لا يبقى هناك إلا السهل الصحراوي، جو المليس و العَرَمْرَم و الريان وغيرها، الواقعة بين خط عرض «العَبْر» والحافة الجنوبية للرمال العظيمة ، والتي تمتد تقريباً على طول خط عرض سبعة عشر. هذا السهل يمكن -في رأيي- أن يُعد بمثابة عتبة الربع الخالي، ولكنه يكاد يكون جزءاً لا يتجزأ منها. إن درب القوافل من حضرموت إلى نجران عن طريق العَبْر وآبار مشينيقة ينم عن وجود كثير من حركة عليه في الماضي، وحتى في الحاضر، تنفي تهمة الخلو أو الفراغ. هذا الطريق في التيه الصحراوي أضيق من طريق «حمد السوري» الذي يشبهه في شمال الجزيرة العربية بين بغداد ودمشق ولا يواجه المسافر بأي عقبة أو صعوبة خطيرة. ولذلك بعد النظر في جميع الأمور كما ينبغي، أشعر أنني مقتنع بأن اسم الربع الخالي يجب أن يقتصر على الصحراء الرملية التي تمتد حدودها الجنوبية تقريباً على طول خط عرض سبعة عشر من حافة تلال اليمن السفحية حتى تجاه حدود عُمان. ولذلك، بعد كل شيء، يجب عليَّ أن أتخلى عن أي ادعاء بأنني قد عبرت الربع الخالي بالسيارة. لقد عزمنا بكل تأكيد

على إتمام ذلك، ولكن الربع الخالي تقلص أمامنا، وحرمنا من الشرف الذي كنا نسعى إليه بين رماله. ولقد اكتشفنا حدوده الجنوبية (والغربية) ، وكان هذا كل ما في الأمر.

ولقد تمكنت - على أي حال - في هذا التطويق للربع الخالي من أن أدرس مشكلة ذات أهمية كبرى فيما يتصل بتشكيلاته الرملية. وكان بيرترام توماس قد اقترح نظرية بعد رحلته الرائدة عبر الرمال في ١٩٣١م تقول: إن أعلى كتل التلال توجد تجاه الركن الجنوبي الغربي في الربع الخالي. وخلال رحلتي في العام التالي رأيت منطقة القَعَاميّات الرملية قريباً إلى الجنوب من طريقي، وأخبرني رفاقي أنها أعلى كتل الرمال في الصحراء كلها. وموقعها كان في حوالي النقطة الوسط من الحافة الجنوبية للربع الخالي، وقد أوحى لي هذا الموقع وهو أعلى التشكيلات الرملية الموجودة ربما جنوب ذيول الأودية المدفونة التي كانت تجري ذات يوم عبر شبه الجزيرة حتى الخليج الذي تمثله الآن رمال منطقة «خيران». والآن بعد أن طُفتُ حول الحافتين الغربية والجنوبية للربع الخالي فقد أثبت بالتأكيد حقيقة مؤداها أن الركن الجنوبي الغربي لم يكن مميزاً بالتلال الشامخة. لقد رأيت بالتأكيد تلالاً شاهقة معزولة مثل تلال «داعر» في بقع محمية تصلح لتراكم الرمال في شكل إِهرامات، ولكن الطرف الغربي كله من الصحراء يمكن أن يوصف بكل معنى الكلمة بأنه منطقة واسعة من الرمل بها القليل من التلال البارزة ولا ترتفع أكثر من مئة قدم من أرضية الصحراء إلا نادراً. ولم يكن بها شيء يمكن أن يقارن بمنطقة القَعَاميَّات أو التلال حول «شنة» و نايفة وليس لديَّ بالطبع أي وسائل لتحديد ما إذا كانت الصحراء، ككتلة، تتحرك نحو الجنوب أو تتراجع نحو الشمال. ولم يكن هناك تلال منعزلة في «جو المليس» أو «العَرَمْرَم» ويوجد بها حبيبات وحصباء توحي بأن الجزء الرئيس قد تركها وهو يتراجع للشمال. وفي الوقت نفسه لا يوجد ما يدل على غزو الرمال المتقدمة من الشمال لمنطقة تلال «الريان» وربما يكون المعلم الأكثر إثارة للدهشة في الحافة الجنوبية للربع الخالي هو خط الحدود شديد الوضوح والدقة بين منطقة الرمل والسهل المنبسط الميت، مثل خط الشاطئ لبحر خال من الأمواج.